الرسام

حسين بدوي

عرض وتحليل

لمحمد فهمي

أتيح لي ان اكون في « باريس » في شهر اغسطس من هذا العام (١٩٣٨) حين افتتح الفنان «حسين بدوي» معرض رسومه بالمكتب المصري للسياحة بالشانزليزيه تحت رعاية معالي فخري باشا وزير مصر المفوض والمسيو بيتري رئيس جماعة «فرنسا — مصر» فأمكنني ان اشاهد عن كثب تقدير رجال الفنون وكبار المثقفين للفن من فرنسيين وأجانب لرسوم هذا الفنان وطابعه المتميز بقوة الشخصية وعمق الفكرة وما له من قدرة على توزيع اللون وتحليله الى درجات متعددة لكل درجة تعبيرها الخاص وكأنما يخاطب روحك بلغة من الالوان معبراً عن فكرة منتزعة من اعماق نفسه لا تلبث ان تحسها تتغلغل في اطواء نفسك وإذا بك امام لوحاته تحس وترى وتسمع ! واذا بالذي امامك ليس بمعرض رسوم بل معرض حياة !

يرتكز فن بدوي على دعائم ثلاث : الفكرة . طريقة التعبير . اللون . كل منها تشعرك بوجودها في قوة ووضوح كأنما حاول اجتذابك اليها خاصة ولكنها جميعاً تحقق «الكل» المتسق في انسجام تام

﴿ الفكرة ﴾ — فالفكرة هي الاساس الذي تحكم به على مدى عمق الفنان واتساع رحاب روحه ، ومقدار ثروته من الاحساس التي وقدرته على التعبير . فالموضوع الذي يعرض له حتى يحقق منذ بدايته حافلاً بجميع خصائص العالم الخفي من ظواهر وامرار !

وان الفكرة لتتبع في اعماق نفسه ثم تنمو حتى تملأ جوانب نفسه كلها فتخرج للوجود وقد حملت بكل ما في نفسه من خصائص الفنية وعمق وابداع !

وهنا يحق لنا ان نقف قليلاً ثم نطوي السنين القهقرى ربع قرن او يزيد لنخلص الى طفولة بدوي ونشأته حيث تتأصل خصائص المحيط الذي في جوه تبعث « الفكرة » لتبعث في شكلها النهائي وهي في طريقها الى الكمال الانساني الخالق . فنشهد هنا اللاشعور حيث استقرت في أعماقه الخصائص الوراثية وانطبعت في حناياه صور البيئة . فتبعث الفكريات التي اثمرت فيه بل حيث مصدر جميع الانفعالات والمشاعر الفائضة التي يعانيها الفنان « في

عقده الباطن » فيحاول الافصاح عنها بأسلوبه الخاص وطريقته في التعبير وبلغة حيث المادة الخام التي يصوغ بها الفنان فنه !

فبدوي نشأ نشأة مصرية بحتة في ريف مصر وبين حقول الخضراء الباسمة ريفاً ونشأة والصفاء الواجمة في الصيف ثم تغذى بتاريخ مصر منذ عهد الفراعين ولمس بروحه روح الفن الفرعوني ووعى جمال الفن الاسلامي ثم هو بحكم نشأته العائلية مؤمن عميق الايمان فيه طهارة المؤمن وصفاء قلبه ونقاءه ثم تمثل تقاليد هذا الشعب الموروثة وحياته الحافلة بالآلام والمسرات والاحلام

هذه الخصائص متغلغلة في اعماق نفس بدوي مضافاً اليها مزاجه الخاص وطابعه المتفرد بالغموض الذي كاد يشير الى مجاهل وفجوات في اعماق روحه لايفذ اليها النور تموج بالانفعالات الغامضة والاشباح والاطياف ! فمن هذه جميعاً تمتزجة متفاعلة تتكون طبيعة الفكر عند بدوي الفنان ! وهي اما رمزية واما مثيولوجية واما تصويرية

ففي بعض لوحاته يطوح بك في تيه لا حدود له فيقودك الى مجاهل التاريخ حيث الانسان في حالته البدائية وقد صوره في لوحة « رقصة الكهف » وهو في حالة من النشوة الوحشية (Primitive) ينقر على آلات دف ساذج مستقيم الاضلاع (اذ لم يكن قد توصل الانسان بعد الى الدف المستدير !) ورفيقته تشاركه نشوته وهما يرقصان امام باب كهفها المظلم الرهيب وكأن الاثنين اشباح تدور في ظلام الدهور ! . وتارة يدخل بك الى هياكل الفراعنة كلوحتيه « السائل المقدس » و « حارسة المقبرة » فتستشعر تلك الروعة الرهبة التي خلعها الفراعين على معابدهم ومقابرهم وهي المنبثقة من اعماق روح مصر المفعمة بالقداسة وجلال الايمان . فترى في اللوحة الاولى « السائل المقدس » فتى المعبد في وقار وروعة وهو يصب لفتاة من الشعب السائل المقدس فتتلقاه في إناء بلهفة وخشوع تستشف خلاله لذة ذلك الايمان العجيب !

وأما « حارسة المقبرة » فيبدو في الظلام وقد أنهكها عناء الوقوف فرتكزت برأسها فوق يديها المتشنجتين على قمة عصاها وأسندت ظهرها واحدى رجليها المهيكتين الى احد الاعمدة الضخمة المجنحة المقبرة وسط ظلام مخيم . في حد الجو الرهيب يملأ الاعتقاد نفسك ان هناك مقبرة حقاً وان بها ميتاً مدفوناً حقاً وان هذه حارسة مهمة حقاً

وانطابع الرمزي المثيولوجي يبدو بارزاً في لوحته « نهايتها الاخيرة » و « الامومة » والاولى اقتباس فكري بحت . ولوحات بدوي تبين لنا ناحية الغموض في نفسه ونزوعه الى مجاهل التطور في حياة البشرية وارتياد حقب التاريخ وكأن بدوي لا يعبر عن عواطفه ومشاعره المشجرة في محيط عقله الباطن فحسب بل عن مشاعر شعب بأسره بل الانسانية جميعاً ! وهنا يحق لنا ان نقول ان بدوي صاحب مذهب رمزي في الفن وهذا أمر طبيعي في هذه الفترة التي نجتازها من

سلسلة تطورنا الاجتماعي والثقافي وانهُ بعد ان لاحت هذه الظاهرة الرمزية والميثولوجية في انتاجنا الادبي الرفيع من شعر ونثر « أنظر مفرق الطريق لبشر فارس وشهر زاد وأهل الكهف لتوفيق الحكيم وعلى هامش السيرة لطه حسين وشعر بعض شعراء المدرسة الحديثة » نعم كان من الطبيعي حينئذ ان يظهر صاحب هذه الطريقة في الفن ومن يرَ لوحات بدوي يحكم انهُ صاحبها

وبدوي حين يفكر في محاكاة الطبيعة سواء الحية او الصامتة يحاول دائماً ان يتحداها فينفخ فيها من روحه ما يهبها النبض والحياة فترى اللوحة وقد خرجت من بين يديه تحمل من خصائص بدوي ما يزاحم خصائص الاصل الذي تعبر عنهُ وكأن هناك تنافساً بين شخصيتين قويتين : بدوي والطبيعة . ولكنهُ في النهاية لا يخضع الا لنفسه ! فترى طيف رمزيته يلوح على درجات مختلفة من الوضوح والتستر حسب قابلية الموضوع الذي يعرض لهُ . ومن هنا كانت طبيعة بدوي لا تتفق « والبورتريه » أي تصوير الاشخاص وقد أخبرني انهُ لا يميل اليه كثيراً وان كان أحياناً يلجأ اليه ليسكب عليه من روحه وفنه وفي هذه الحالة يبلغ الغاية من الاجادة ومن ذلك لوحة « بنت الحيران » اقتناها سري باشا ولوحة فذة تسمى « عذيلة » أطلقت عليها صالونات القاهرة « الجيوكوندا المصرية » وهي لدى مدام سامي باشا

﴿ طريقة التعبير ﴾ — لعل طريقة التعبير في فن بدوي هي أنسب أسلوب للتعبير عن أفكاره . أو قل ان هذا الاسلوب وليد تلكم الافكار، وبدوي في طريقته هذه لا يتأثر بأي مدرسة من مدارس الفنون أو أية شخصية من رجال الفن فكما ان فكرته وليدة طبعه وخصائص نفسه فكذلك أسلوبه ليس الا نتيجة طبيعية للجو النفساني الذي يحيا فيه بل هو النتيجة الحتمية لانبعاثات روحه وهواجس فؤاده. على انك واجد بينهُ وبين رامبرانت شبهاً غير قليل في ظلاله وعتمه ! فهو إما عابس كالطبيعة الغاضبة وإما كئيب كأحزان الغروب. ويبدو أسلوب بدوي كأنهُ ثوب مفصّل تماماً لأدق المقاييس ملاءمة للفكر وابرازاً لما فيها من جمال وسحر ! كل شيء فيه جديد مبتكر وكل ذرة فيها حية ناطقة ومجموعه الكلي يتميز بطابع الاستقلال والطرافة وكأنهُ يقول في كل ذرة من أجزائه « أنا شيء جديد » وهذه الظاهرة لاحظها ناقدو الفن الفرنسيين فأشاروا اليها في جرائدهم

فاذا اراد ان يعبر للشمس « الغروب » مثلاً كانت فتاة ريفية تعود حاملة على رأسها أناء كبيراً وهي في ثوبها ومشيتها وحزمات الضوء المتساقطة على اللوحة هنا وهناك باحكام عجيب وقد شمرت الفتاة عن ساقيها تخوض في ارض تنطبها المياه فتكاد تلمس ما تعانيه وهي تنقل خطواتها في جهد واعياء وتحس انتهاء والشوق في اندفاع الفتاة والحركة التي تكاد تهز اللوحة من . كل هذه التعبيرات تملك عليك نفسك فلا تملك الا ان تهتف « حقاً انها العودة ! »

ولبدوي طابع في تعبيره يتناسب ورمزيته فهو لا يبرز لك تفاصيل الاشخاص بدقائقها

واضحة جلية بل على قدر ما تعبر به عن المعاني والانفعالات في الجو الذي يخامرُ على اللوحة كأنما ينقلك من عالم الحس الى عالم التخيُّلات والاسرار فتشارك الفنان في احساسه وشعوره بل كأنك تعيش معه في عالمه

﴿ طريقته المبتكرة ﴾ — توصل بدوي الى ان يخط على لوحة « الاكواريل » الماء المثبت ظلالاً واضواء هي غاية في الاتقان بأسلحة مدية الاسنة فترى الظلال والاضواء تموج امامك في اللوحة وكأنها ظلال من الطبيعة نفسها تبدو مهيبة رائعة !

هذه الطريقة تتطلب صبراً طويلاً واناة ومهارة لا يطيقها الاّ من وهب نفسه للفن ؛ ولاشك ان الكثيرين سيحتذون هذه الطريقة الجديدة والاستعانة بها مع « الترشاة » على رسم الظلال والاضواء على انني اشك في ان احداً يستطيع البلوغ بها مبلغ بدوي من القدرة والاعجاب. وذلك لانها لا تصلح الاّ لفنان له طابع بدوي ذلك الطابع القائم في اغلب لوحاته . فترى الاشخاص والمرئيات تبعث امامك رهبة لانها تبعث من الظلام وتخطو في الظلام توضحها حزمات من الضوء يسقطها الفنان من كوّة روحه البعيدة الاغوار فلا يتجلي الظلام تماماً. ولكن تستطيع ان تتبين ما فيه من اشباح واشخاص. في مثل هذه اللوحات القائمة يمكن استعمال الاسلحة المدية اي طريقة بدوي في كشف الاضواء والاظلال على اللوحة بشرط ان يكون الفنان متمكناً من طريقته حاذقاً لها

﴿ اللون ﴾ هذه السهولة التي تراءت لي في فن بدوي على ان هذه السهولة نتيجة البساطة والاقتصار غالباً على لون واحد . ولكن المهارة والقدرة على تحليل اللون الى درجات عدة تجعلك حائراً امام تلك المجموعة العجيبة المتناسقة من الالوان، وما هي في الواقع الاّ لون واحد تناولتهُ يد بدوي ومقدرته فكان ما تراه

هذه القدرة على تحليل اللون تضفي على لوحاته طابعاً من البساطة والتعقيد معاً ولكنها البساطة الفطرية والتعقيد الفذ ثم هي تهيء له ان يحوّم بأشباحه واشخاصه في عوالمها المجهولة او المعلومة في غير ما جلبة ولا صخب من تطاحن الالوان وتضاربها. وبذلك يستطيع ان يخلق الجو الملائم كل الملاءمة للانفعالات والمشاعر التي يريد التعبير عنها فتنطق بها وجوه اشخاصه

« وكأن كل قسمة من قسمات الوجه تتحدث عما يشتجر في حنايا الصدر وآفاق الفؤاد من احاسيس وعواطف . وقد كنت أود ان أتناول مجموعة من لوحات هذا الفنان بالتحليل والشرح ولكنني جبنت أردت ان أعرض لهذا وجدت ان المجال لا يتسع الآن . وأملي ان يتاح لي تحقيق هذه الرغبة او يتقدم بها غيري ممن تذوقوا فن بدوي ولمسوا روحه في انتاجه الفني وهذه خدمة غير قليلة للفن الجميل